عولمة أم شمولية في زمن تكنولوجيات الإعلام والاتصال قراءة في مفهومين متلازمين

د. أحمد عظيمي
جامعة الجزائر 3

ملخص:

تتناول هذه الدراسة الإشكالية –التي تبقى دائما مطروحة- المتعلقة بالمفهوميم المرتبطين بتكنولوجيات الإعلام والاتصال وهما مفهوما: العولمة والشمولية. **كيف ظهر وتطور المفهومان، وهل يعبران فعلا عن نفس الشيء، بمعنى هل هما متلازمان أم أنهما متباينان؛ وإن كانا كذلك (متباينان) ففي ماذا يتمثل التباين؟**

بينت الدراسة بأن الوضع الجديد الناشئ، عن استعمال تكنولوجيات الإعلام والاتصال، هو أكبر وأعمق وأشمل من أن يحتويه مفهوم العولمة بترجمتها الفرنسية "mondialisation " لأن النظام العالمي الجديد يتجاوز العلاقات الدولية ويتجاوز العولمة فهو نظام أحادي، كوسموبوليت وشمولي. إنه زمن القوة الواحدة التي تفرض اللغة والثقافة الواحدة في النموذج العالمي الذي أصبح واحدا. إنها شمولية " globalisation" وليست أبدا عولمة.

Résumé

Cet article étudie la problématique –qui reste toujours posée- des deux concepts liés aux technologies de l'information et de la communication : la mondialisation et la globalisation. Sont-ils identiques ou différents ?

Cette étude démontre que la nouvelle situation « engendrée » par l'utilisation des TIC dépasse de loin toutes les définitions et les « contenu » de la mondialisation. Le nouvel ordre mondial apparaît plutôt comme un ordre uniforme, cosmopolite et global. C'est l'ère de la puissance unique qui impose la langue et la culture unique dans le modèle mondial qui est devenu unique. C'est une globalisation et non pas une mondialisation.

مقدمة:

من المعروف أن تكنولوجيات الإعلام والاتصال تسهل إنتاج ونشر وتقاسم المعلومات والمعارف وكذلك المعطيات والإعلام وممارسة الاتصال. هذه التكنولوجيات أوجدت العديد من المفاهيم الجديدة التي بدأت تبرز، خاصة منذ بداية التسعينيات من القرن الماضي، والتي من أهمها مفهوما العولمة والشمولية.

رغم شيوع استعمال المفهومين واعتبار –لدى البعض- أحدهما (العولمة) مجرد ترجمة للآخر (الشمولية التي تترجم بglobalization في اللغة الأنجليزية)، إلا أن اختلافات عديدة لازالت قائمة بين الباحثين في مجالات الإعلام والاتصال وعلم الاجتماع والاقتصاد، حولهما؛ مما يجعلنا نطرح السؤال التالي: **كيف ظهر وتطور المفهومان، وهل يعبران فعلا عن نفس الشيء، بمعنى هل هما متلازمان أم أنهما متباينان؛ وإن كانا كذلك (متباينان) ففي ماذا يتمثل التباين؟**

للإجابة عن السؤال المطروح، قسمنا مقالتنا هذه إلى مقدمة وعنصريين أساسيين وخاتمة؛ نتناول في كل واحد من العنصرين التعاريف المختلفة المقترحة لحد الآن ثم لمحة تاريخية عن ظهور المفهوم وتطوره وننتهي بمضمون المفهوم و إبراز الاختلافات الكامنة بينهما.

1- تحديد مفهوم العولمة

يقول الباحث في علوم الإعلام والاتصال ناصر الدين العياضي([1]) انه لا يعتقد بأن هناك مفهوما معاصرا أستخدم في مطلع هذا القرن استخدامات متعددة ومتنوعة مثل العولمة، قبل أن يسرد العديد من المصطلحات التي سعت إلى رصد هذه الظاهرة الجديدة وتشخيصها: منها التدويلInternationalization ، والشمولية أو الكليانية (Globalization) ، و ما فوق الجنسيات أو تعدد الجنسيات (multinationalization).

لقد حاول العديد من الباحثين العرب تحديد المصطلح أولا ثم محاولة الغوص في مضمون المفهوم ثانيا غير أن مساعيهم اصطدمت باستمرار بما يمكن أن نسميه بنوع من "تمنع" المصطلح و"هلامية" المفهوم. في اعتقادنا أن صعوبة تحديد المفهوم وتعدد استخداماته يعودان بالأساس لمشكلة ترجمة المصطلح نفسه من إحدى اللغات الغربية (الانجليزية، الفرنسية، الألمانية ..) من جهة وللتطورات السريعة جدا الحاصلة في مجال تكنولوجيات الإعلام

[1] - ناصر الدين العياضي، إشكاليات الإعلام في عصر العولمة؛ http://www.siironline.org/alabwab/solta (تاريخ الزيارة: 2012/02/02)

والاتصال مما جعل كلمة "العولمة" غير كافية كمصطلح وكمفهوم للدلالة على ما يقع فعلا في عالم اليوم.

للتدليل على كل ذلك لا بد من العودة إلى التعاريف المختلفة التي اقترحت من طرف غربيين وعرب، ثم تتبع تطور المفهوم منذ ظهوره إلى اليوم للوصول إلى تحديد مضمونه ومن ثم مقارنته مع ما يقع في عالم اليوم للوصول إلى ما إذا كان المفهوم الذي ظهر بقوة مع بداية العقد الأخير من القرن الماضي لازال يعبر عما هو قائم فعلا في مجالات عديدة خاصة ما تعلق بالاتصال والسياسة منها أم أن هناك مفهوما آخرا تسلل بهدوء وفي غمرة "الانبهار" بما تحمله تكنولوجيات الإعلام والاتصال من جديد يتغير بسرعة فائقة.

1-1- تعريف العولمة

دون الرجوع إلى المعاجم والقواميس العربية([1]) للبحث في أصل الكلمة ومعانيها المختلفة، نذكر بأنها في الأصل هي ترجمة لكلمة "globalization " الأمريكية والملاحظ هنا أن هذه الكلمة الانجليزية لا تعني أبدا كلمة "عولمة" بل كلمة "شمولية".

حاول بعض الباحثين العرب إيجاد ترجمة دقيقة للمصطلح الأمريكي، فكان أن اقترح السيد ياسين مصطلح "الكونية"، واختار كل من إسماعيل صبري عبد الله ومحمد محمود الإمام مصطلح "الكوكبة"، بينما رأى عبد الشفيع عيسى بأن "العالمية" و"العولمة" هما مرادفان للتدويل القريب بدوره من مصطلح "globalization "([2]).

لعل شيوع استخدام مصطلح "عولمة" بدل المصطلحات السالفة الذكر يعود لكون الفرنسيين اختاروا مصطلح "mondialisation" للتعبير عن واقع العالم في زمن تكنولوجيات الإعلام والاتصال، وهو المصطلح الذي لا يوجد مقابل له في اللغتين الانجليزية والألمانية؛ غير أن بعض الباحثين الفرنسيين عاد، منذ مطلع القرن الحالي، للقول بأن المصطلح الفرنسي لا يعبر عما هو قائم وأن أفضل ترجمة للمصطلح الانجليزي هو مصطلح "Globalisation" أي "الشمولية".

الملاحظ أن المصطلحين يختلفان عن بعضهما من حيث المضمون (أنظر أسفله)؛ وهو ما يذهب إليه الباحث الألماني (أولريش بك) الذي خصص

---

[1] - أنظر في ذلك: مؤيد عبد الجبار الحديثي؛ *العولمة الإعلامية*؛ الأهلية للنشر والتوزيع؛ عمان؛ 2002؛ ص ص: 30-32

[2] - أنظر في ذلك: مؤيد عبد الجبار الحديثي، نفس المرجع؛ ص 27

المبحث الأول من كتابه (ما هي العولمة؟) للتفريق بين مفاهيم العالمية والشمولية والعولمة.

استعراض نماذج من التعاريف المختلفة لمصطلح "العولمة" في الأدبيات العربية يبين مدى الخلط بين ما هو "عولمة" بمعنى "mondialisation" التي تعني جعل الشيء على مستوى العالم بإلغاء الحدود المانعة لعبور وانتقال السلع والأفكار والمعلومات، وبين ما هو " شمولية" بمعنى "Globalisation" التي تعني، فيما تعنيه سيطرة لغة واحدة وثقافة واحدة ونموذج واحد على العالم (وهو ما سنعود إليه أدناه).

يقول علي حرب([1]) بأن العولمة ليست "شيئا بسيطا يمكن تعيينه ووصفه بدقة، بقدر ما هي جملة عمليات تأريخية متداخلة تتجسد في تحريك المعلومات والأفكار والأموال والأشياء وحتى الأشخاص، بصورة لا سابق لها من السهولة والآنية والشمولية والديمومة، إنها (قفزة حضارية) تتمثل في تعميم التبادلات الاقتصادية والاجتماعية والثقافية، على نحو يجعل العالم واحدا أكثر من أي يوم مضى، من حيث كونه سوقا للتبادل أو أفقا للتواصل"

إذا تفحصنا هذا التعريف المقترح للعولمة من طرف باحث عربي فإننا نجده ينطبق تماما على المصطلح، فهو يحصر العولمة في جوانبها التقنية: الانتقال بسهولة وتعميم التبادلات المختلفة في إطار سوق عالمية مفتوحة للجميع دون استثناء. غير أن واقع الحال غير هذا بتاتا.

يعرف كمال الدين مرسى([2]) العولمة بأنها " وصول الرأسمالية التاريخية عند منعطف القرن العشرين تقريبا إلى نقطة الانتقال من عالمية دائرة التبادل والتجارة والسوق والاستخراج إلى عالمية دائرة الإنتاج وإعادة إنتاجها اى حقبة ثالثة متميزة تنضاف إلى مرحلة الاستعمار التجاري الأول ومرحلة الإمبريالية الكلاسيكية اللاحقة".

هذا التعريف يركز على جانب الإنتاج المعولم الذي جعل العالم الغربي ينتقل إلى حقبة ثالثة من تاريخه، وهو ما يعني أن واقع العالم الآن يختصر فقط في جوانب الإنتاج.

---

[1] - علي حرب؛ حديث النهايات. فتوحات العولمة ومأزق الهوية؛ المركز الثقافي العربي؛ بيروت؛ 2000؛ ص 266

[2] - أنظر في ذلك: أدهم عدنان طبيل؛ *الإعلام الحديث في ظل العولمة*؛ *pulpit.alwatanvoice.com/content-89911.html* (تاريخ الزيارة: 12/01/10)

لعل التعريف الأكثر شمولا للعولمة هو ذلك الذي يقدمه محمد عابد الجابري([1]) حيث يقول بأن العولمة "هي نظام أو نسق ذو أبعاد تتجاوز دائرة الاقتصاد، إنها نظام عالمي أو يراد لها أن تكون كذلك، يشمل مجال المال والتسويق والمبادلات والاتصالات ...الخ، كما يشمل أيضا مجال السياسة والفكر والايديولوجيا".

هذا التعريف الأخير هو في نظرنا الأكثر تعبيرا عن حقيقة "العولمة" لكنه في نفس الوقت يقربنا أكثر من مصطلح "الشمولية".

1-2- لمحة تاريخية عن ظهور وتطور مصطلح العولمة

حسب (بيرو إيكون) ([2]) PERROUX, Écon فأن عبارة "العولمة" استعملت لأول مرة، سنة 1959، من طرف جريدة " The economisty"، ثم بالجريدة الفرنسية لوموند ."Le Monde"، في سنة 1960؛ غير أن الكلمة لم تأخذ معناها الحالي وتصبح واسعة الانتشار سوى مع بداية التسعينيات، خاصة مع آراء الباحث (مارشال ماك لوهان) وبروز حركات معادية أو مساندة للعولمة.

العبارة ظهرت بقوة بعد سقوط حائط برلين (1989) وأصبحت تستعمل بشكل واسع على إثر تفكك الاتحاد السوفييتي (1991).

يرى بعض الباحثين بأن العولمة ليست ظاهرة حديثة([3]) بل هي قديمة جدا وارتبطت بالإمبراطوريات المختلفة التي نشأت وتوسعت على حساب شعوب عديدة مما جعل العالم عبارة عن مركز (دولة أو إمبراطورية) مهيمن وأطراف (شعوب مختلفة) تابعة أو مهيمن عليها. حول علاقة الأطراف بالمركز يقول برهان غليون([4])، في حواره مع سمير أمين حول ثقافة العولمة وعولمة الثقافة، بأنه في كل مرحلة تاريخية هناك مركز عالمي فاعل وان

---

[1] - محمد عابد الجابري؛ العولمة والهوية الثقافية: عشر أطروحات؛ *العرب والعولمة. بحوث ومناقشات؛* ندوة فكرية؛ مركز دراسات الوحدة العربية؛ بيروت؛ 1998؛ ص

[2]- PERROUX, Écon ; « L'industrialisation, ses ressorts réels et son idéologie stimulent la mondialisation de certains marchés et la lutte entre les "marchés" occidentaux et les "marchés" soviétiques » ; 20°siècle, 1964 ; p.286), cité par le *Trésor de la langue française informatisé ;* http://sedosmission.org/old/fre/albert.htm(Consulté le: 12/1/2012)

[3] - للمزيد حول لمحة تاريخية عن العولمة، أنظر: مؤيد عبد الجبار الحديثي؛ م س ذ؛ ص ص: 36-38

[4] - برهان غليون وسمير أمين؛ *ثقافة العولمة وعولمة الثقافة*؛ دار الفكر، سورين ودار الفكر المعاصر، بيروت؛ ط2؛ 2002؛ ص 15

الحركات التي تجري في محيط هذا المركز أو في الأطراف، ليست مستقلة عما يجري في المركز.

وعليه فالعولمة هي ظاهرة قديمة تطورت مع تطور الحضارات البشرية، لكنها عرفت أوج نموها مع انتشار استعمال تكنولوجيات الإعلام والاتصال.

1-3- مضمون العولمة

يستعمل المفهوم على إنه يعني بروز مجتمع جديد بلا حدود (أعطوها في البداية بعدها الاقتصادي فقط: وحدة السوق الدولية في إطار اقتصاد عالمي)

العولمة التي بدأت اقتصادية إذن والتي ارتبطت بمعنى العلاقات العالمية العابرة للحدود والتي تعني البشرية جمعاء؛ هذه العولمة امتدت، مع تطور تكنولوجيات الإعلام والاتصال، لتشمل مجالات عديدة أخرى كالسياسة والاتصال بمكونيه الأساسيين (الإعلام والثقافة)

يتعرض فؤاد بن حالة([1])،في كتاب صدر له بباريس، منذ ست سنوات، لنتائج العولمة على تطور المجتمعات مستعرضا آراء مختلف الباحثين الذين تناولوا الموضوع بالدراسة، ومنهم (جان بلين-ميلرون) Jean Belin-Milleron الذي بعد أن يقر بدور الاتصال كوظيفة حضارية، وكحامل للثقافة، يصل ليطرح الإشكالية التالية: "بأية حضارة يتعلق الأمر؟ وما هي الثقافة التي نريد نشرها؟"

إن الأمر يتعلق بنظام جديد تلعب فيه شبكات الاتصال دورا رئيسيا، وتتحول فيه مسألة حركة الإعلام التي كانت من القضايا التي تتولاها منظمة اليونسكو إلى مجرد ملف تابع للمنظمة الدولية للتجارة بما يعني أن الإعلام والاتصال أصبحا يعتبران كسلعة تطبق عليهما نفس قوانين السوق (العرض والطلب).

إنه تنظيم جديد له أبعاد دولية ويمارس على مستوى دولي. في هذا التنظيم يصبح الإعلام والمعرفة هما الثروة الإستراتيجية التي يجب تنميتها والحفاظ عليها وكذلك استعمالها لتحقيق مآرب وطنية ودولية: المزيد من التأثير الديبلوماسي والحضور الثقافي وكذا الترويج للنموذج الغربي (الأمريكي بالخصوص).

هذا التنظيم الجديد، الذي بدأ معولما نقل العالم، في فترة جد قصيرة، نحو حالة جديدة جعلت المركز أحاديا، بعد أن كان، عبر التاريخ، ثنائيا أو ثلاثيا،

([1]) - فؤاد بن حالة، *الاتصال الشمولي. الأنظمة والمجتمعات العربية في مواجهة التحدي*، ترجمة أحمد عظيمي، ANEP، الجزائر، 2005، ص ص: 37-38

وحتى في الأزمنة التي سيطر فيها مركز واحد على العالم (الإمبراطورية الإسلامية مثلا) فإن الكثير من شعوب الهامش واصلت العيش خارج تأثيرات هذا المركز وحافظت على ثقافاتها وعلى ما يسميه برهان غليون بتاريخياتها. هذا الوضع لم يعد كذلك اليوم لأن المضمون الرئيسي للعولمة، حسب نفس الباحث، وكما "نعرفها اليوم هو أن المجتمعات البشرية التي كانت تعيش كل واحدة في تاريخيتها الخاصة، وحسب تراثها الخاص ووتيرة تطورها ونموها المستقلة نسبيا، على الرغم من ارتباطها بالتاريخ العالمي، قد اصبحت تعيش في تاريخية واحدة وليس في تاريخ واحد."([1])

الوضع الجديد الناشئ هو أكبر وأعمق وأشمل من أن يحتويه مفهوم العولمة بترجمتها الفرنسية "mondialisation ". هذا ما دفع ببعض المفكرين الأوروبيين والفرنسيين بالخصوص، في السنوات الأخيرة، إلى إثارة نقاش مهم حول مدى مطابقة مفهوم العولمة مع ما يجري حقيقة في الواقع، ملاحظين أنه إذا كانت العولمة تعني توسع العلاقات والمبادلات ما بين الدول فإن النظام العالمي الجديد يتجاوز العلاقات الدولية ويتجاوز العولمة، وإنه أكثر أحادية من أي نظام آخر عرفته البشرية في السابق. هذا النظام الجديد يتميز بكون الجبهة الرئيسية في حرب السيطرة العالمية، أصبحت "جبهة المواجهة الثقافية، الهادفة إلى التخفيض من قيمة الثقافات المنافسة، وتسويد صفحتها، لدفع نخبها إلى التنصل منها، والانضمام إلى ثقافة النخبة المعولمة الكسموبوليتية[2]"؛ مما يجعل النخب تنسلخ عن ثقافاتها الوطنية وتسعى للترويج للثقافة السائدة وللنموذج السائد الذي هو النموذج الأمريكي. يحدث هذا في نفس الوقت الذي تتعرض فيه حدود الدول للاختراق بكل أشكاله (اتصالي، ثقافي، سياسي، اقتصادي) وتفقد السلطة الوطنية الكثير من أدوات السيطرة والتحكم والتخطيط، مما يجعلها تفقد دورها كفاعل رئيسي في مجالات بقيت، إلى عهد قريب، من صلاحياتها الأساسية (تنظيم السوق، الاتصال الجماهيري، الدبلوماسية).

هذا الوضع الجديد اختير له مفهوم الشمولية عوض العولمة.

---

[1] - برهان غليون، سمير أمين؛ م س ذ؛ ص:20

[2] - نفس المرجع؛ ص 40

2- تحديد مفهوم الشمولية

لا توجد أدبيات تعرف الشمولية على أساس إنه مصطلح مختلف عن "العولمة" كما لا يوجد أي تحديد له بسبب أن الاهتمام انصب أساسا على مصطلح "عولمة" الذي جاء ترجمة ل "mondialization " باللغة الأمريكية، وحتى المصطلحات المرادفة الأخرى التي سبقت الإشارة إليها أعلاه كالكونية والكوكبة وحتى الشمولية لم تجد الانتشار الواسع في أعمال الأكاديميين والإعلاميين. لذلك وجب التوضيح بأن المقصود بالشمولية، في عملنا هذا، ليس أبدا "العولمة" التي هي مرحلة سابقة عن "الشمولية".

2-1- تعريف الشمولية

بالعودة لفكرة ماك لوهان حول القرية الشاملة le village global، نلاحظ أنه من جهة لا توجد كلمة "عولمة mondialisation" باللغة الانجليزية، فهي تترجم globalization التي تعني "الشمولية"، ومن جهة أخرى فإن ما يعنيه المصطلح الأمريكي هو أوسع وأعمق وأشمل من مصطلح "العولمة". لذلك يمكن القول أن بعض التعاريف المتعلقة بمصطلح وحتى بمفهوم "العولمة" تنطبق، إلى حد ما، على مصطلح ومفهوم "الشمولية".

المصطلح هو حديث الاستعمال في مجال الاتصال (أنظر أسفله) لذلك فان محاولة وضع تعريف له خارج تعريف "العولمة" هي في بداياتها.

فؤاد بن حالة هو من الباحثين الذين أولوا أهمية للاختلافات القائمة بين مصطلحي "العولمة" و"الشمولية" حيث يقول بأن "بعض علماء الاجتماع يفرقون بين "العولمة" و "الشمولية". هذه الأخيرة قد تكون مرتبطة بعلاقات من أنواع مختلفة: اقتصادية، سياسية، ثقافية بين أمم ذات علاقات سلمية أو تنازعية. العولمة قد تكون بدورها مرتبطة بحقيقة معاصرة: توسع العلاقات والتبادلات التجارية والعابرة للأوطان على مستوى العالم، وهي نتيجة للسرعة المتزايدة، باستمرار، للنقل والاتصالات في الحضارات المعاصرة. أما الشمولية، فمرجعيتها هي نظام-عالم في ما وراء العلاقات الدولية ويتجاوز العولمة، إنه حدث اجتماعي كامل بأتم معنى الكلمة"([1])

في غياب تعريف شامل وكامل للمصطلح، نحاول من جهتنا أن نقترح له تعريفا، دون أن نطمح في أن يكون كاملا ومعبرا فعلا عما هو حادث في العالم اليوم بل مجرد اقتراح قد يطور مع الوقت.

الشمولية تعني ذلك النظام العالمي الجديد الذي تلعب فيه شبكات الاتصال الدور الأساسي وتستعمل بفعالية في تنفيذ استراتيجيات السيطرة وتساهم في جعل الإعلام والمعرفة مصدرا للثروة الإستراتيجية. إنه نظام

[1] - فؤاد بن حالة؛ م س ذ، ص 36

تسيطر فيه إيديولوجية واحدة، هي الليبرالية، ونظام سياسي واحد، هو الديمقراطية، ولغة واحدة، هي الانجليزية، وثقافة واحدة، هي الثقافة الأمريكية، ونموذج واحد، هو النموذج الأمريكي؛ كل ذلك في ظل السيطرة الاقتصادية والقوة العسكرية للمركز الذي أصبح أحاديا (الولايات المتحدة الأمريكية).

نستنتج من التعريف السابق أن العالم يسير نحو أحادية الفكر والثقافة؛ كما نستنتج أن الآمال الكبار التي وضعت في شبكات الاتصال (الانترنيت بالخصوص) بكونها ستعمل على الترويج للثقافات المهمشة لم تتحقق، بل بالعكس فالوضع يشير إلى المزيد من التهميش والإبعاد لكل ما لا ينتمي للمركز بلغته وثقافته ونموذجه.

الوضع الجديد الناشئ مع تطور العولمة إلى مرحلة أرقى هي الشمولية، جعل حتى بعض الدول الكبرى التي كانت، إلى عهد قريب، تعتبر منارات للعلم والمعرفة، تشعر بأنها أصبحت خارج التاريخ. فهذا الجنرال الفرنسي المعروف (جالوا) (P.M. Gallois) يتساءل في عنوان لكتاب له حول تأثير الشمولية على مستقبل بلده قائلا: "هل تخرج فرنسا من التاريخ؟"[1]

الشعور بالخروج من التاريخ هو الذي جعل الكاتب الفرنسي (باسكال بريكنار)[2](Pascal Bruckner يكتب قائلا: "وكأن بلدنا الذي كان بالأمس منارة العالم، بلد الضياء هذا، ينتبه فجأة بأنه لم يعد مهما، ولم يعد يحدد قواعد اللعبة (...) مع انعدام الثقة في نفوسنا والتي هي ظاهرة الأمم السائرة نحو الاندثار. إنه أسوأ ما يمكن أن يحدث"

الشمولية هي إذن غير العولمة، ففي هذا النظام الأحادي الناشئ يتغلب فيه الاتصال على أسلحة التدمير الشامل، ويؤثر (الاتصال) –ويستعمل كذلك- في مختلف ميادين الحياة في نفس الوقت: الممارسات الثقافية، التعليم، الترفيه، العلاقات الاجتماعية، الصحة، الدفاع، الأمن، التضليل ..

إنه نظام عالمي فوق العلاقات الدولية وفوق العولمة. إنه ما يؤكده عالم الاجتماع (قي روشيه) Guy Rocher عندما يقول بأن الشمولية هي توسع العلاقات والتبادلات الدولية والعابرة للدول على مستوى العالم، نتاج السرعة المطردة لوسائل النقل والاتصال في الحضارة المعاصرة.

2-2- لمحة تاريخية عن ظهور وتطور مصطلح الشمولية

(1) - Gallois (PM), « La France sort-elle de l'histoire », l'Age d'Homme, 1999

(2) - in : *Le Monde*, 2 avril 1998.

يقول المفكر الأمريكي (فرانسيس فوكوياما))[1](Francis FUKUYAMA، في كتابه الذي يحمل عنوان "الاضطراب الكبير"، أنه "خلال النصف قرن الأخير حققت الولايات المتحدة الأمريكية والدول الأخرى المتطورة اقتصاديا، تدريجيا، انتقالها نحو ما نسميه "مجتمع المعلومات". في هذا المجتمع، يتوجه العمل الثقافي ليحل محل العمل العضلي". إنه ما تم بالفعل حيث أن عوائد الولايات المتحدة من الصناعات الثقافية هي الآن أكبر من مداخيلها من البترول وحتى من الصناعات العسكرية.

خلال المباحثات التي سبقت التوقيع النهائي على اتفاقية (الغات) GATT الممهدة لإنشاء منظمة التجارة العالمية (1994) كان النقاش جد حاد بين الولايات المتحدة والمجموعة الأوروبية بقيادة فرنسا حول ملكية الحقوق الفكرية والثقافية. المجموعة الأوروبية رأت في الهيمنة الإعلامية الأمريكية خطرا حقيقيا على الثقافة والفكر النقدي والاختلاف.

في نفس الفترة، عرفت فرنسا العديد من نشاطات ومسيرات المثقفين والمفكرين الفرنسيين المطالبين بحماية الثقافة الفرنسية من الغزو الثقافي الأمريكي.

التفوق الخارق للأمريكيين في مجالات تكنولوجيات الإعلام والاتصال دفع إذن بالكثير من المفكرين والباحثين الأوروبيين، خاصة الفرنسيين منهم، إلى التنبيه، منذ منتصف التسعينيات إلى أخطار هذا التفوق على مستقبل أوروبا. الكاتب الفرنسي (جان نوال جانيني)[2](Jean-Noël Jeanneney يقول في كتابه (تاريخ لوسائط الاتصال) الصادر سنة 1996: "إذا سمحت أوروبا بأن تتخلف غدا في مجال تكنولوجيات الإعلام والاتصال. إذا انهزمت أمام أمريكا واليابان في معركة تكنولوجيات الاتصال فأنها قد تتعرض للسيطرة الروحية، بل للاحتلال".

مع مطلع الألفية الثالثة، بدا واضحا أن أوروبا وباقي دول العالم قد تخلفت فعلا في مجال تكنولوجيات الاتصال وفي ما يتعلق بالصناعات الثقافية عن الولايات المتحدة الأمريكية التي أصبحت تمثل وحدها مركزا للكون. من هنا بدأ الحديث عن "الشمولية" بدل "العولمة".

---

[1] - Francis Fukuyama ; *Le grand bouleversement* ; Francis Fukuyama éditions de la table ronde ; Paris ; 2003

[2] - Jean-Noël Jeanneney ; *Une histoire des médias*, Seuil, Paris, 1996 ; P.56

2-3- مضمون الشمولية

يبرز مضمون الشمولية خاصة من خلال تمركز رأس المال والاستثمارات في قطاع تكنولوجيات الإعلام والاتصال مما جعل أقل من مائتي (200) شركة كبرى متعددة الجنسيات تسيطر اليوم على معظم الهياكل الثقافية في العالم (السينما، الكتاب، الموسيقى، البرمجيات..). على رأس هذه الشركات العابرة للدول والقارات نجد العمالقة الخمس المعروفة والتي تنتمي في مجملها للولايات المتحدة الأمريكية وأوروبا واليابان. هذا يعني أن العالم يسير نحو شمولية أحادية وليس نحو عولمة جماعية. في هذا العالم الشمولي تسيطر ثقافة واحدة تسعى إلى اختراق هويات الشعوب واستلاب النخب المتعلمة ونزعها، كما يقول برهان غليون([1])، من ثقافاتها الوطنية لإدماجها في ثقافة النخبة العالمية مما يعني أكثر " تخفيض الثقافات الوطنية إلى مستوى الثقافات الشعبية، أي التواصلية، وإبعادها عن حقول السلطة الناجعة السياسية والاقتصادية والعلمية، ومن وراء ذلك نزع السلطة السياسية والاقتصادية والرمزية عن المجتمعات وإعدادها للدخول في فلك ما يمكن أن نسميه الامبراطورية العالمية". هذه الصيغة، تساهم، حسب نفس الباحث، في تصليب (وتقوية) القطب المركزي (الذي هو الولايات المتحدة الأمريكية) وتجعل منه القطب الحي الذي يضخ في اتجاه الأطراف، بينما تحول هذه الأطراف إلى محيط هش يعتمد في حياته وتبادلاته المادية والرمزية بصورة قوية على القلب الذي تتكثف فيه القوة والطاقة.

تخفيض الثقافات الوطنية([2]) يرافقه إبعاد للعنصرين الأساسيين اللذين يعتبران إسمنت المجتمعات وهما اللغة والدين. الشمولية تدفع النخب إلى استعمال اللغة الانجليزية بدل اللغات الوطنية لأن الأولى هي لغة العلم ولغة شبكات الاتصال حيث أن أكثر من سبعين (70) بالمائة من محتويات شبكة الانترنيت هو بهذه اللغة. نفس الشمولية تسعى إلى تشويه الديانات الأخرى، بخلاف المسيحية، وتقديمها على أنها تدعو إلى العنف والتطرف وغير قابلة للتعايش مع الآخر ومع الحداثة.

---

[1] - برهان غليون، سمير أمين؛ م س ذ؛ ص 41

[2] - في ذلك يقول الباحث الجزائري عبد الرحمان عزي: "أوردت النظرية النقدية أن وسائل الاتصال تحدث تأثيرات المعيارية والاستهلاكية في المجتمع المعاصر. تعني المعيارية قولبة الثقافة في شكل بضائع متجانسة قابلة للاستهلاك العام، فالعناصر الثقافية التي لا تتوافق مع ما هو معياري تستثنى ولا تسوق بناء على ذلك، الشيء الذي يضعف التنوع الثقافي عامة". عبد الرحمان عزي؛ الثقافة وحتمية الاتصال. نظرة قيمية؛ المجلة الجزائرية للعلوم السياسية والإعلامية؛ العدد: 2(2002-2003)؛ ص ص: 241- 267

يقول (صامويل هنتنجتون)[1] وهو أحد المنظرين الأمريكيين في كتابه المشهور "صدام الحضارات. إعادة صنع النظام العالمي" بأن "اللغة والدين هما العنصران الرئيسيان في أي ثقافة أو حضارة. وإذا كانت هناك حضارة عالمية تظهر أو تبزغ، فلابد أن تكون هناك ميول نحو ظهور لغة عالمية ودين عالمي"، مما يعني إنه من بين مضمون الشمولية السعي لفرض اللغة الانجليزية كلغة عالمية والدين المسيحي كدين للبشرية جمعاء. نذكر هنا بأن الرئيس جورج بوش كان أول من تحدث عن النظام العالمي الجديد بعد غزو العراق.

نفس الباحث الأمريكي يتعرض، في نفس الكتاب، لثقافات البشرية فيقول أن توزعها "في العالم يعكس توزع القوة. التجارة قد تتبع العلم وقد لا تتبعه، ولكن الثقافة تتبع القوة دائما. وعبر التاريخ كان توسع حضارة ما، يحدث دائما إبان ازدهار ثقافتها، وكان يتضمن دائما استخدام تلك القوة لنشر قيمها ومؤسساتها وممارساتها والوصول بها إلى مجتمعات أخرى"([2]).

الشمولية تعني إذن، كما يقول الباحث الفرنسي (ألبار لونجشون)([3]) Albert Longchamp بأن الذي يتحكم في الإعلام والاتصالات هو الحاكم المفترض للكرة الأرضية. إنه صراع حثيث للسيطرة على العقول والثقافة في عالم يسير بسرعة فائقة نحو الأحادية وذلك رغم تعدد وسائل الاتصال مما يجعل الأمر كما يقول (ألان ميلك)([4]) Alain Minc: "ليس الفكر هو الأحادي بل الواقع هو الذي أصبح كذلك".

الخاتمة

يقال إن الانتصار يعود دائما لمن وجد الحلقة المفقودة بين القديم والجديد. لا شك أن حلقات عديدة لازالت مفقودة بين مفهومي "العولمة" و"الشمولية".

لقد انطلقنا، في هذه المقالة، من إشكالية بسيطة لكنها معقدة في نفس الوقت. أردنا أن نتأكد ما إذا كان مفهوما "العولمة و"الشمولية" لهما معنى واحدا أم إنهما مختلفان، وإن كان الأمر كذلك ففي ماذا يتمثل الاختلاف؟

العولمة التي يمكن أن نرد نشأتها إلى بداية ظهور الرأسمالية والتي تطورت معها خلال خمسة قرون كانت فترة تناقض بين ما عرف بالمركز (الدول الكبرى) والأطراف (الدول الضعيفة التي تعرضت في معظمها

---

[1] - صامويل هنتنجتون؛ *صدام الحضارات. إعادة صنع النظام العالمي*؛ ترجمة طلعت الشايب؛ ط2، سطور، القاهرة، 1998؛ ص 98

[2] - نفس المرجع؛ ص 150

[3] - http://sedosmission.org/old/fre/albert.htm (visit é le: 12/1/2012)

[4] - in : *Le Monde diplomatique*, août 1996, p.16

للاحتلال والاستغلال من طرف المركز) هذه العولمة تطورت بفعل تطور تكنولوجيات الإعلام والاتصال بشكل سريع خلال العقدين الأخيرين بما أدى إلى حدوث أول تناقض داخل دول المركز نفسها حيث ظهرت قوة واحدة (الولايات المتحدة) تسعى، عن طريق تفوقها في تكنولوجيات الإعلام والاتصال، لفرض نموذجها (ثقافة، لغة، اقتصاد..) على باقي دول المركز (في حدود معينة لكنها الأكثر تضررا) وعلى باقي دول الهامش بصفة تكاد تكون كاملة.

بعد هيمنة دول المركز على دول الهامش حدثت نقلة نحو هيمنة (إعلاميا وثقافيا أولا ثم اقتصاديا) دولة واحدة من المركز (مركز المركز) على باقي دول العالم، وهو ما جعل البشرية تنتقل نحو نظام جديد يختلف عن العولمة والذي يمكن أن نطلق عليه مصطلح "الشمولية" لأنه الأكثر تعبيرا عما هو كائن بالفعل.